نحو فكر قومي ثوري

بقلم محيي الدين صبحي

كيف نخلق ادبا قوميا ؟

وكيف نخلق أدبا قوميا يكشف عن الشرط اللاانساني الذي يرزح تحته الفرد العربي ؟

لا أدري اذا كانت صيغة السؤالين من الوضوح بحيث تبين الفروق التي أرمي اليها من طرحهما .

فالسؤال الاول يتضمن نفيا لمعظم ماكتب بالعربية ـ وربما كله ـ منذ قرن مضى الى اليوم . فهذا الادب في رأينا لاينطلق من منطلقات الوعي القومي ، بل ان منطلقاته ذاتية او اقليمية او انسانية ، مما يمكننا ان نصنفه حسب رأينا بانه ضلالات تسيء الى الفن بقدر مايتعلق الفن بالتعبير عن اللا شعور الجمعي للامة ، سواء بتراثها او بتطلعاتها ـ فليس لدينا فاوست عربي ولا راسكو لينكوف عربي بله ميرسو عربي أو حتى همبرت همبرت عربي .

والسؤال الثاني يتعلق بفضح الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي تتحكم بالفرد والمجتمع العربيين المعاصرين فتشوههما تشويها وتسحقهما سحقا ، حتى تكاد ان تخرج بهما عن صعيد الحياة البشرية ، وتلقيهما في حالة لايتبين خلالها المرء نفسه ، وهذا هو ادب الفضيحة ، كما نشاهده على الصعيد العرقي في كتابات الزنوج الامريكيين ، وعلى الصعيد الاجتماعي في كتابات الجيل الغاضب ، او كتابات الادباء الثوريين .

السؤال الاول ينطلع الى ثوابت الحضارة : أي مجموعة القيم والاهداف التي يتبناها شعب من الشعوب لامد طويل ، حسب حاجاته وملكاته .

السؤال الثاني يتعلق بمتحولات الحضارة : أي بالشروط الخارجية التي فرضها الاستعمار من جهة ، والعصر الحديث من جهة ثانية ،وطرأت على الامة العربية فخربت بعض جوانب شخصيتها وتسببت بنمو مرضي في الجوانب الاخرى .

في السؤال الاول ، تطرح الامة نفسها على العالم كمعطى له أبعاد وتطلعات واحتياجات . اما في السؤال الثاني ، فيطرح العالم نفسه على الامة كمعطى له حتمياته وابعاده وشروط للحياة فيه .

ان دور الادب في السؤال الاول هو التقرير والتطوير ، كما فعل غوته بفاوست حين جسد طموح الحضارة الاوروبية الى السيطرة عن طريق المعرفة . او كما فعل دوستويفسكي براسكو لينكوف حين طرح ان خلاص الانسانية ـ هنا في روسيا ـ انما يكون عن طريق التضحية والتطهير . في حين ان دور الادب في السؤال الثاني هو التحليل والتوجيه كما فعل مالرو وغوركي .

ان الادب عندنا مايزال مائعا يعتمد على الموهبة والارتجال ، او مخنثا يتزيا بزي الآداب الغربية ـ لكنها دعوى قديمة ، أليس كذلك ؟ والذين يرون الدعوى قديمة ، يتهافتون بانهم ليس في وسعهم تفليد امريء القيس أو الجاحظ !

لا هذا ولا ذاك . فحين نصف ادبنا بانه مخنث او في أحسن الاحوال خلاسي ، فانما نعني بذلك انه لاينهض على أساس من التحليل الفكري للواقع الحضاري الراهن الذي تعيشه الامة العربية : وهنا أنص على أنني أبتعد تماما عن الذين يطالبون الادب بان ينبع عن الواقع المحلي . فهذه الواقعية الضيقة هي بدورها جزء من التخنث او قصر النظر او الانخلاع عن فهم الواقع الحضاري للامة العربية في مرحلتها الراهنة . فهذه الامة ليست أمة : انها تمر بحالة من الشيزوفرانيا او اذا لم يكن الفصام فليكن انعدام الهوية او بالاصح ضياعها . فما دام العرب مجزئين الى دول اقليمية فان لكل فرد هويتين : هويته الاقليمية، وهويته القومية . الهوية الاقليمية واقع يعيش فيه وينكره ، والهوية القومية أمنية او ذكرى ، يتطلع اليها ولا يحققها او يتحقق منها . كذلك الامر في موضوع الحضارة : فنحن أمة متحضرة اذا أخذنا ماضينا وتراثنا بعين الاعتبار ، ونحن أمة متخلفة اذا قسنا انفسنا على مقتضيات الحضارة الصناعية الحديثة ..

ان مثل هذه الحقائق تتطلب من الفن ان يقدم لها معادلا موضوعيا من تألق الضمير ووهج الوجدان عبر طاقة من الابداع ، يفجرها الالم من ذلنا وتعاستنا ، ويطهرها العزم الثوري على قلب كل عامل من عوامل التخلف الى سلاح تشهره انسانيتنا في وجه الغرب الذي ينكر علينا وجودنا وحقنا فيه .

سأتخذ في هذا المقال من قوميتنا الممزقة والحضارة الصناعية التي يعتدها الغرب ليعتدي علينا ، معطيين متصارعين احلل من خلالهما وضع أمتنا الحضاري والتشويه المتعمد النازل بها ، مع محاولة لاظهار بعض الآفاق التي يطل عليها الواقع العربي في سعيه للمحافظة على وجوده ومضاهاة انواع الوجود الاخرى التي تتحداه .

ان الادب الذي ينهض على اساس من تحليل الواقع القومي ـ كما نشاهده في رواية « المثقفون » لسيمون دي بوفوار ـ لهو ادب احتجاج بقدر ماهو ادب اقتراح . وان في اجماع ادباء أمة من الامم على تصميم صورة البطل وصورة الحل ، لمساهمة جلى لم يخلق لغيرها الادب . اذ تتعدى هذه المساهمة دور الاقتراح المقدام لتقرير المصير ، الى ترسيخ قيم ثورية تنسف المجتمع المتخلف والمغالطات الفكرية المدسوسة .

لقد آن الاوان لادبنا ان ينطلق من واقع تشتتنا القومي ، ويتجه نحو بلورة صورة لامة موحدة مصنعة معقلنة ، ولن يكون هذا أبدا عن طريق البركاكة الخطابية او الفثاثة التقريرية لقلب الادب الى اعلان .

بل ان الفن دائما هو الفن : رموز وأشارات توحي ولا تصرح ، تثير الحنق في نفس القارىء دون ان يخرج بها الغضب عن منطقها الداخلي. ان الفن مادة هشة شفافة ترجع صدى الهمس لكنها لاتتحمل الصراخ فتنكسر .

وانني في محاولتي المخلصة هذه لاتمنى بكل تواضع ان اكون قد ساهمت في ايضاح مشكلة من أخفى المشكلات وأعوصها ، وهي تمهيد السبيل للفنانيين كي يحاكوا بأعمالهم الفنية وضع أمتهم . فيطرحوا نماذج فنية عالية تستمد سموها من كونها تقترح أنماطا في السلوك والتفكير لكسر طوق الحصار الذي استفاءت الامة فوجدت نفسها فيه.

وأنا بهذه البداية الصغيرة أدعو الادباء والمفكرين الى المشاركة في انماء هذه الفكرة وتنميتها لكي تصبح اتجاها دون ان تكون مذهبا كما أرجو ان تصنع هذه المضمونات أشكالها الجمالية الخاصة وان تقدم الى عالم الادب العالمي نماذجها الاصيلة : النماذج العربية للمجاهدة والطموح .

***

دفعت طاقة الفحم والبخار اوروبا كي تصبح قدر العالم بحضارتها الصناعية وتقدمها التقني منذ مطلع القرن التاسع عشر . واندفعت الدول القومية الاوروبية الناشئة ، لتصبح امبراطوريات خارج النطاق الاوروبي ، منساحة على القارات التي انبطحت ، من صدمة الحديد والبارود ، امام الفاتح الابيض الذي سار من موانيء آسيا الى عواصمها يتقدمه المبشر ويتبعه التاجر . وكانت ـ حتى قبل ذلك التاريخ ـ قد بدأت الدورة الجهنمية للبحث الاول عن المواد الخام والبحث الثاني عن الاسواق . وقد استعمر الاوروبيون معظم أنحاء الشرق العربي ،خلال طريقهم الطويل الى آسيا القصوى ..

وقبل ان يكتشف بترول العرب في القرن العشرين ، ويسير في منتصفه مخزونهم الضخم منه ، كانت الشواطىء الجنوبية بأكملها للبحر المتوسط ـ وهي الوطن التاريخي للامة العربية ـ قد دخلت تحت السيطرة الاوروبية المباشرة او المقنعة . فلما تزايدت أهمية البترول العربي في العالم تزايدت ضرورات قمع اصحابه بعد تزايد وعيهم ،وبعد خروج الاتحاد السوفيتي منتصرا في الحرب ، فأضاف الغرب الى الانتداب السياسي والاحتلال العسكري في الوطن العربي ، الاحتلال الاستيطاني .

حين هل عام ١٩٥٠ كان العرب من أتعس الامم في العالم : فعلى حين ان الصينيين أنجزوا بثورانهم بناء دولتهم القومية الموحدة المستقلة الاشتراكية ، انطرح الوطن العربي جثة ممزقة بالية ، سرق الصهاينة بعض اعضائها ، واستنزفت شركات البترول دمها ، وأكل الاقطاعيون والبورجوازيون اللحم الميت لاخوانهم من العمال والفلاحين.. ووقف اصحاب الضمير والوعي ـ العنصران يفترقان غالبا عند العرب ـ امام بقايا الهيكل العظمي العربي المتناثر ، يجرون ماضيا لايقوون على حمله ، ويواجهون حاضرا لايدركون أبعاده ، ويفكرون في « حلفائهم » من الغربيين الذين طعنوهم أقسى الطعنات ، وينطلعون الى السوفييت بوجل : لقد تخلى العالم عن العرب وتركهم لمصير يجهلونه ، ولا يجهله .

كل الدواهي التي ابتلى بها العرب ، وجدوا لها أسبابا ومبررات، ماعدا ذلك العدد الضخم من الدول والحكومات والامارات والمشيخات التي قسم اليها وطنهم اوطانا تتصلب وتقسو يوما بعد يوم ، كلما ازدادت الحاجة الى الوحدة وكثر الكلام فيها . ولدى فشل كل محاولة وحدوية ـ تقدمية او رجعية ـ ينتصب السؤال الملح : لماذا قسم الوطن العربي ؟

كيف حدث ان خططت حدود الدول العربية ومساحاتها بحيث جاءت الخريطة السياسية للوطن العربي ، على هذه الصورة بالذات ؟

ليس شافيا الجواب التقليدي ، بأن اطماع الاستعمار استدعت تقسيم الارض العربية ، بحسب مناطق النفوذ الدولية . ان هذا الجواب صحيح صحة جزئية . فقد حصلت فرنسا على سورية ولبنان فجزأتهما دولتين . وحصلت بريطانيا على العراق وسورية الجنوبية، فقسمتهما ثلاث مناطق : العراق والاردن وفلسطين . بل احتلت بريطانيا القسم العربي من وادي النيل ففصلته الى دولتي مصر والسودان .

ان حجة التقسيم لتسهيل الادارة لاتثبت للمناقشة ، فقد كان بامكان الاستعمار ان يقتصر على التقسيم الاداري دون انشاء دول ـ كما فعل في الهند .

كما ان مسألة التفريق الطائفي بين المسلمين والمسيحيين لاتثبت ايضا للمناقشة ، فاذا كان « لبنان الجبل » تمايز عن الامبراطورية العثمانية بأكثرية مسيحية ، فان فرنسا التي خلقت « لبنان الكبير » اضعفت الاكثرية المسيحية أضعافا جعلها « اقلية كبيرة » دون ان تفرغ سوريا من مسيحييها ـ فضلا عن أن تمازج الطائفتين ، المسيحية والمسلمة ، لم يمنع التعاون بينهما حسب تقليد تاريخي موروث : فالامة العربية في الاساس ، أمة مزدوجة الديانة . وفي عصر الفتوحات الاولى ، كان عرب الجولان وعرب الجزيرة السورية وعرب العراق مسيحيين . ولم يفت ذلك عمر بن الخطاب فأكد وحدة الامة حين اعلن المبدأ الفقهي العظيم بان العربي لايدفع الجزية ولا يسترق ، مسيحيا كان او مسلما . ولهذا السبب اذهل التاريخ العربي العالم بخلوه من الصراع الديني .

ومالنا ولهذه التفصيلات ، ونحن نرى الى المغرب العربي وقد حكمته فرنسا فجزأته الى ثلاث دول ؟!

واذن فمراعاة النظرة الدينية كان عاملا ثانويا في رسم الخريطة السياسية ، ولم تكن الدول الاستعمارية احرص على مصالح العرب المسيحيين منها على مصالح العرب المسلمين .

فاذا لم تكن مناطق النفوذ ولا المصالح الطائفية هي الاساس الذي قسمت بموجبه أشلاء الوطن العربي ، يبقى لنا ان نفترض وجود المصالح الاقتصادية . ولكن مناطق النفوذ اقتسمت على أساس المصالح الاقتصادية وليس العكس . اذ ان هذه المصالح هي التي روعيت في الاتفاقيات السرية بين فرنسا وانكلترا ، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها .

من اين اذن انبثقت هذه النظرة التجزيئية للوطن العربي، واعتبرت اساسا يقف الاستعمار والصهيونية بكل وسائلهما لتثبيته ؟ لماذا لم تجزأ الصين ولا الهند ، وفي وحدة كل منهما اخطار تفوق أي خطر محتمل على الغرب ومصالحه ، اذا وحد الوطن العربي ؟

الجواب على ذلك ـ في رأيي ـ يكمن في تكوين أوروبا الحديثة وتفكيرها الحضاري ، اولا . وفي الصهيونية واطماعها الماحقة ، ثانيا .

فبعد ان تحللت أوروبا من قبضة الكنيسة ، تمايزت الى دول قومية ، تنظر الى المجتمع البشري من خلال مفهوماتها القومية . فما هي نظرة الغرب الى القومية العربية ؟

وما هو تقييم الغرب للوجود العربي ؟

لكي نقيم خطورة هذا السؤال ، علينا ان نتذكر ان الاجابة عليه تحوي في تضعيفاتها معنى موقف الغرب من العرب وانعكاس هذا الموقف على الواقع العربي . كما ان ايجاد الجواب الصحيح يفضح الضلالات الفكرية التي بثها أعداء الامة كبديل عن ارادة الامة في وحدتها .

تعتبر الحضارة الغربية نفسها وريثة للحضارتين اليونانية والرومانية اللتين سادتا في العصور القديمة . وترى في سيطرتها وهذا سبب من اسباب انكار العروبة في الفكر الاوروبي الحضاري بعثا لثوابت هاتين الحضارتين وانكارا للحضارات الاخرى التي قاومتهما: وهذا سبب من اسباب انكار العروبة في الفكر الاوروبي الحضاري الحديث . ان اوروبا تريد ان « تحذف » التاريخ العربي الذي بدأ منذ الفتح الاسلامي (٦٢٥ م) . فاذا حذف هذا التاريخ عادت المنطقة

ان هذه الفرضية تشرح لنا لماذا كانت الاتفاقيات الاستعمارية (سايكس ـ بيكو) (سان ريمو) (يالطة) تجري على مستويين الى صورتها الاولى قبل الفتح الروماني : دول المدن واللغات المتعددة. متكاملين : المستوى الاستعماري لتحقيق المصالح الاقتصادية والنفوذ السياسي ، والمستوى الحضاري ، وغايته تحقيق الصورة الهلنستية للمنطقة ، وذلك لاسقاط الحضارة العربية ـ الاسلامية فيها .

هل هذا الكلام رجم بالغيب أم ابتعاد عن أصول « البحث العلمي » ؟

لكي نتجنب التخرصات ، أرجو من القارىء ان يطابق خريطتين تفصل بينهما أكثر من ألفي عام : خريطة الوطن العربي عام (١٥٠٠ق.م) وخريطة الوطن العربي الان ، وسيدهشه دهشة المفاجأة ، ان يجد ان التطابق بين الخريطتين ملموس بالعين المجردة ودون اعمال الفكر لحظة واحدة .

ماهو العنصر الذي يجمع الخريطتين ؟ انه غياب الوجود العربي .

ففي عام (١٥٠٠ ق.م) لم يكن للعرب وجود حضاري سياسي . وفي الخريطة المعاصرة ، ليس للعرب ايضا وجود حضاري سياسي .

لندرس خريطة (العهد القديم) بشيء من التفصيل .

ـ بين النهرين سكن البابليون والاشوريون : الوجود السامي القديم ، فأقيمت دولة العراق الحديثة .

ـ وقد انتشر الفينيقيون على الشاطىء اللبناني ـ السوري ، فأقيمت دولة لبنان الحديثة .

ـ في مدن حلب وحماه وحمص ودمشق سكن الآراميون ، فأقيمت الدولة السورية الحديثة .

ـ في فلسطين سكن الكنعانيون والعموريون في الداخل واحتل الكريتيون « الفلسطينيون » القدماء السواحل ، وفد غزا العبرانيون الكنعانيين واقاموا مملكتهم ما بين غزة وحيفا وجعلوا القدس عاصمة لهم ، ثم انقسمت المملكة العبرانية بعد وفاة النبي سليمان (١٠٠٠ ق.م) الى دولتين : مملكة يهوذا وعاصمتها القدس ، ومملكة اسرائيل وعاصمتها نابلس . وقد أسست الصهيونية حقها المزعوم على هذه الواقعة التاريخية وحققت لها بريطانيا وعد بلفور كاجراء تنفيذي لفكرة « انكار العروبة » .

ـ كانت مملكة الفراعنة تنتهي عند صحراء النوبة جنوبا والصحراء الليبية غربا . ولا تتعدى حدود مصر الحالية هذين الحدين التاريخيين.

ـ أقامت القبائل العربية مابين مصر وأم درمان ، وظل العرب والاسلام ينتشران الى الجنوب باشعاع حضاري لم تعرف الغارة الافريقية سواه ، لمدة اكثر من الف عام : فأقيمت للسودان دولتها الحالية .

ـ يختلف المؤرخون في اصول الليبيين القدماء : هل هم ساميون ام آريون ، ويتفقون على انهم كانوا بعيدين عن طاعة الفرعون . وعلى هذا الاساس اقيمت دولة ليبيا الحديثة ، ويجب النص هنا على ان انشاء الدولة سبق ظهور البترول ، مما يدل على ان تنفيذ الصورة التاريخية التي نحللها كان الاساس في انشاء الدول العربية الحديثة .

ـ ومن الجدير بالذكر ان الفينيقيين انساحوا على شواطىء المتوسط بأكملها ، ولكنهم توضعوا في الشمال الافريقي عند النتوء التونسي ، وأسسوا قرطاجة عاصمة لهم . وهي اليوم قريبة من مدينة تونس ، عاصمة الدولة الحديثة .

ـ وبما ان الفينيقيين والرومان من بعدهم ، اقتصروا على السواحل وقد ألف البربر في الداخل دولا لهم ، قضى على آخرها عقبة بن نافع عام ٧٠٠ م .

الا ان فرنسا حين أسست دولة الجزائر استعمرت السواحل وعجلت بانشاء دولة للبربر وايجاد أبجدية للفتهم التي اوشكت على الانقراض .

ـ وبقي للمرابطين والموحدين دولة المغرب التي كان الهدف من تأسيسها ان تصبح مهجرا يؤوي النازحين من مسلمي الجزائر .

ـ وهنا يجب الا ننسى ماكان من تقسيم تاريخي في الجزيرة العربية بين اليمن وسواحل الخليج من جهة وبين اليمن والحجاز ونجد من جهة اخرى . وقد احتفظ الاستعمار البريطاني بالسواحل مائتي عام دون ان يسمح لها بأي تطور .

بالطبع ، قد يقال ان العواصم الحالية كانت عواصم ايام العثمانيين وايام العرب ، وان الغرب حين أسس الكيانات العربية القائمة الان كان يراعي المصالح الاقليمية للسكان وعاداتهم التاريخية فمن يجادل في ان دمشق عاصمة وان بغداد عاصمة وان مراكش والقاهرة .. عواصم ...؟

اننا لانتكر ذلك ، ولا ننكر ايضا ان في الوطن الحالي امكانا لعواصم اخرى .. ولكن لابد لنا من اثبات حقيقة تاريخية وهي ان كل الاطراف الاولى التي تصدت للتعامل مع الغرب كانت الوحدة مطلبها : الحسين الهاشمي ، الجمعية السورية وأطراف متعددة اخرى ، لكن الغرب حافظ على رد واحد هو تجزيء المنطقة بحسب الصورة التي كشفناها وأملتها عليه « الرجعية التاريخية » . كما ان مواقف الغرب المتتالية منذ نصف قرن الى اليوم لم تتطور ولم تتزحزح قيد أنملة .

تنفيذ الصورة الرجعية التاريخية في الوطن العربي ، حقق للاستعمار ـ عدا الفائدة الحضارية ـ فوائد اخرى عادت بأضرار اخرى على الامة العربية .

أ ـ فأما الضرر الداخلي ، فينتج عما يؤذي الامة في علاقة بعض أجزائها بالبعض الاخر ـ أي اضرار التجزئة بعامة :

ـ منها سوء توزيع السكان : « ٣٥ مليونا » في مصر حشروا ضمن مليون كم ، على حين ان السودان امتد على ٢٫٥ مليون كم ، ولا يقطنه سوى عشرة ملايين عربي .

ـ منها ان الدول العربية كلها تقريبا دول ساحلية تطل على البحار : الابيض والاحمر والهندي : ولا وجود لاسطول عربي ، بحري او حربي .

ـ منها ان أموال البترول العربي تقتصر على دول قليلة السكان، بينما تتركز الكثافة السكانية في دول بلا موارد .

ـ منها ان ميزانية اية دولة عربية ـ ربما باستثناء مصر ـ لاتوازي ميزانية أية شركة من الشركات الكبرى .

ـ منها ان ماينفق على التنمية القطرية ضمن حدود التجزئة لايؤدي الى المردود المطلوب من جهة ، ومن جهة اخرى سيشكل حائلا دون الوحدة التي ستتم في قطرين او اقطار تتشابه في فائض انتاجها.

ـ منها ان اية تنمية حقيقية ، بانشاء الصناعات الثقيلة ، تظل أمرا مستحيلا وخاسرا على الصعيد القطري المنفرد .. الخ

ب ـ واما الضرر الخارجي فيتأتى من ان هذه الكيانات الهشة في تركيبها وعدد سكانها يختل توازنها لدى أي تحرك من الاقليات او الدول المجاورة :

ـ احتلت تركيا اسكندرون وطردت اكثر من نصف مليون عربي .

ـ احتلت ايران الاهواز وطردت اكثر من ربع مليون عربي .

ـ احتلت الحبشة اريتريا وطردت اكثر من ربع مليون عربي .

ـ هاجر الصهاينة الى فلسطين وطردوا مليوني عربي .

ـ هاجر الفرنسيون الى الجزائر وطردوا مليوني عربي ..

ونتج عن ذلك ان حازت تركيا على افضل ميناء في استراتيجية شرق المتوسط ، كما ان ايران التي تخلو عمليا من البترول ، تعيش على البترول العربي منذ ان احتلت الاهواز سنة ١٩٠٧ . وها هي تطرح مصير البحرين اليوم ومصير الخليج العربي او حتى العراق في الغد القريب ...

وليست مطالب الحبشة ـ بالتعاون مع بريطانيا ـ في الصومال العربي بل وفي جنوب السودان بأقل من مطالب ايران في العراق

وألخليج . ومن ينظر الى اختراق الحبشة لاريتريا على البحر الاحمر يتذكر اختراق اسرائيل عند ايلات للبحر الاحمر بالذات الذي هو في جوهره بحيرة عربية . ان قضية اريتريا اصغر من قضية فلسطين حجما لكن قضية الصومال اكبر من قضية فلسطين موضوعا ، اذا كان لنا ان نحدد القضايا القومية بالحجم والموضوع . فالصومال عربي مذ كانت العروبة تعتمد على الهجرات العربية من اليمن (الهجرات السامية) لكن بريطانيا شجعت الكتابة بانعامية وأطلقت اسم « السواحلية » على اللهجة الصومالية واعتبرتها لغة غريبة عن العربية ! وبعد هذا الفصل « الكلي » شجعت الحبشة على اجتياح أريتريا وطرد سكانها والاستيطان فيها . ويحشد الغرب بأكمله كافة طاقاته لتأييد اغتصاب الحبشة وتدعيم استيطانها في اريتريا . بل ان معركة الخامس من حزيران هي في بعض مظاهرها صراع على البحر الاحمر بين العرب من جهة واسرائيل والحبشة والغرب من جهة اخرى .

فالمشروعات الامريكية والاسرائيلية في نطاق الزراعة والمعاهد والقواعد تتكاثف هناك لجلب المزيد من الاحباش واستبعاد العرب الصوماليين المسلمين .

ويقال ان قاعدة ويلس الامريكية انتقلت بقضها وقضيضها الى أراضي أريتريا بعد ان طردت من ليبيا .

واللغة العربية ممنوعة في المدارس ـ والى حد ما الدين الاسلامي .

واخيرا منحت أريتريا بأكملها تقريبا للنشاط الاسرائيلي في التجارة والمخابرات كقاعدة له ينطلق منها الى داخل القارة الافريقية .

ومن هذه الزاوية ـ زاوية الغزو الاستيطاني لطرد العرب ـ يجب ان ننظر ، وبعمق ، الى مشروعات ايران في البحرين ، ومشكلات البربر في الشمال الافريقي .

ولا ادري لماذا لا نتعاون مع اخواننا الاكراد في ايران وتركيا : فالاقليتان العربية والكردية تعانيان هناك من السلب القومي ذاته، وتتعرضان لمنهج واحد في التصفية الحضارية والقومية التي تتبعها كل من ايران وتركيا . ان انشاء وجود كردي على سفوح طوروس الشمالية كفيل بعزل لواء الاسكندرون العربي عن تركيا ، كما ان الوجود ذاته على جبال ذاغروس وكردستان سيبعد ايران عن شط العرب والكويت .

واذا قلت ان الغرب يؤكد على وجود تلك الاقليات بمقدار ما ينكر الوجود ذاته على جبال ذاغروس وكردستان سيبعد ايران عن شط العرب « الوضع الخاص » لاقلية ما ، مرفقا « بضمانة اجنبية » هو أحد أهم المرتكزات الاستعمارية في المنطقة بعد قيام « اسرائيل » .

بالطبع ، لم أورد هذه الامثلة من الاخطار الداخلية كدعوة لاعادة النظر من التساهل العربي التقليدي تجاهها : وانما لابين ان الكيانات الهشة التي اقامها الاستعمار تتأثر تأثرا محسوسا بكل حركة يقوم بها مجموعة من السكان مهما كان حجمها ، ويؤدي ذلك الى اختلال توازن الكيان والمجتمع في الداخل اختلالا يرجح الكفة دائما لصالح المستعمر المتدخل الذي يحرك فئة ويدعي بحقها في كيت وكيت .. وتكون الدعوى دائما مقدمة اما للانفصال والاستقلال عن جسد الامة واما لاحتلال دولة غريبة اراضي عربية وطرد المزيد من العرب او استعمارهم بدعم من الغرب الذي لا يعترف بقومية عربية وبالتالي فانه ينكر الوجود العربي .

ج ـ ولكن ، هل العرب اكثر وفاء لعروبتهم من الغرب الذي ينكرها عليهم ؟

وبعبارة أقل حدة ، الى اي حد يذهب العرب في رفض الصورة السياسية والاطار الحضاري اللذين رسمهما لهم الغرب ؟ وهل يتبين عرب الكيانات مصيرهم في ظل هذه الكيانات بأوضح مما يستشرفونه دولة الوحدة المتخيلة ؟ أخشى أن اقول ان عرب هذه المرحلة لا يرون هذا ولا ذاك . يوضح ذلك سعيهم في تحويل الهزيمة العسكرية الى نصر سياسي لا ينتج عنه تثبيت القيادات العربية الحالية ، بقدر ما ينتج عنه تثبيت الكيانات القائمة في الشرق العربي منذ الحرب العالمية الاولى الى اليوم . وهذه رشوة كبرى للغرب لولا بطر الولايات المتحدة الاميركية التي تشعر بانها مطلقة اليد في الشرق العربي ، ولولا جماح البغل الصهيوني الذي يحكم المنطقة بالارهاب النظري الذي يسمح له بأن يدعي اكثر مما يستطيع ان يفعل : فخلال عشرين عاما منعت « اسرائيل » الثورة العربية من ان تتحرك عبر الحدود بين سوريا ، العراق ، لبنان ، الاردن . بحجة أن تغيير الحدود سيجعلها تحتل الضفة الغربية او غيرها .. ومن المؤسف او المدهش ان تحذيرها وجد آذانا صاغية ، والا فما سر ان كل « الثورات » لم تتجاوز « حدودها » ؟

لو ان عربيا واحدا يجن ويخرج عن أصول اللعبة كما يحددها الغرب واسرائيل . فماذا يجري ؟

يبدو أن مثل هذا العربي « المجنون » لم يخلق بعد . وكل العرب الموجودين الان « عاقلون » « طيبون » يحترمون « العرف الدولي :اي اصول اللعبة كما يحددها الغرب ، ضمن حدود الكيانات القائمة . والا فما تفسير ان اللغة الرسمية للدبلوماسية العربية تحتج على ان العدوان الاسرائيلي أسفر عن احتلال اسرائيل لاجزاء من اراضي « ثلاث » دول عربية ؟

وماذا عن « فلسطين » ؟

الحل الاقصى الذي تقدمه ديبلوماسية « فتح » هو انشاء «دولة» فلسطينية تضم سكانا من « المسلمين »و« المسيحيين » و « اليهود » ولكن أين « العرب » ؟

أرأيتم الى اي حد يتحكم منطق « الكيان » بالمسؤولين عن القضية؟

لو ان لدينا اي أفق قومي ، او حتى « نية » قومية لاختلف المنطق ـ اللهم ان لم تختلف ردود الفعل : كان المنطق القومي ـ ان وجد ـ يقضي بان نطالب بتحرير الاراضي العربية كلها حيثما وجدت وكائنا من كان الذي يحتلها . لكن مثل هذا المنطق يقتضي ارادة قومية ، وعيا قوميا يدفع العرب الى تحطيم حدودهم فيما بينهم اولا، ثم يندفعون نحو « اسرائيل » لا لانها « اسرائيل » ولكن لانها تفصلهم عن مصر : اي ان المنطق القومي يقضي بان نرفض كل حاجز يقطع الاراضي العربية بعضها عن البعض الاخر . سواء أكان بشريا ـ « اسرائيل » ـ او معنويا ـ « حدود » .

ومن هذا المنطلق ، يجب ان نقيم تمثالا للكونت فولك برنادوت ، فالمشروع الذي قدمه لهيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٧ كان يقضي باقامة طريق بري بين غزة وسيناء والاردن : على اساس انه لا يجوز عزل العرب بعضهم عن بعض . ويبدو ان الصهاينة ليسوا وحدهم الذين ذعروا من هذا المشروع ، بل الكيانيون العرب ايضا .

وهكذا فقد اقام الغرب الكيانات العربية ، و « تعهدت » اسرائيل بحمايتها من بعضها بعضا ، على ان تقرض من حوافها اجزاء كلما دعتها الحاجة الى ذلك ، كفائدة ثمنا لهذه الحماية ... على ان تستمر اللعبة ضمن الحدود القائمة .

***

تلك هي نظرة الغرب الى القومية العربية ..

وذلكم هو تقييم الغرب للوجود العربي ...

وهذه هي تجليات الشراهة الصهيونية ، في بعض مظاهرها .

فماذا نتج عن ذلك ، في المشرق العربي ، على الصعيد العملي ؟

خلال اقل من نصف قرن مضى على تنفيذ الغرب للصورة الرجعية التاريخية في الوطن العربي نشأت مصالح وبرزت قوى وطرحت نظريات ادت الى تثبيت ما خاله الغرب وهما زائلا ستعصف به رياح القومية العربية الطالعة . وغدت الحدود الاقليمية بين الكيانات قدرا لا مناص للعرب منه ، بحيث ان التفكير خارج هذه الحدود او بدونها « وهم » او « خيانة » !!

آ ـ بروز الشخصية الاقليمية :

تماما ، وبالضبط : كما اوجد الغرب اسرائيل كيانا مصطنعا ليس له أساس ومقومات فاذا به ينمو نموا سرطانيا ، كذلك اوجد الغرب الحدود بين الاراضي العربية فاذا بهذه الحدود تتصلب وتترسخ وتغدو اساسا للحياة والتعامل .

وتماما ، وبالضبط : كما طفت اسرائيل على الكيانات الاقليمية فسلبتها ، كذلك طفت الشخصية الاقليمية على الشخصية القومية فسلبتها ، واذا كان جيل الثورة العربية الاولى ايام الحرب العالمية الاولى يشعر بأنه عربي اكثر مما هو عثماني ، فان جيل حزيران يشعر بأنه اقليمي اكثر مما هو عربي . أي ان الاردني او المصري او التونسي اكثر مما هو عربي .

انني أطالب كل من ينكر فرضيتي هذه بأن يذكر لي حديثا واحدا عن وحدة ما بين اقطار عربية ما ، لم تستهل وتختتم بذكر « التناقضات الموضوعية » بين اقطار الوحدة المقترحة ، في مجالات الاقتصاد والوعي و « حرية تقرير المصير » . انني اتحدى المفكرين بهذه المصطلحات التي سكها « التقدميون » وروجها « الرجعيون » على الاسلاك المكهربة التي تجزيء الارض العربية .

فكيف حدث ان برزت الشخصية الاقليمية « المصطنعة » وتضخمت بحيث حجبت الشخصية القومية « الحقيقية » ؟

كيف نمت الشخصية الاقليمية على حساب الشخصية القومية او كيف تغلب الاصطناعي على الطبيعي والمزيف على الحقيقي ؟ ـ اترون المشابهة بين قضية غرس الكيانات وقضية غرس اسرائيل ؟ ـ

للاجابة ، علينا ان نتذكر « مهمة » الحدود السياسية و « فوائدها » : ان الحدود تعني مجتمعا ذا نضال مشترك ضد العدو الخارجي ، ونضال مشترك ضد الطبيعة . وهذان النضالان يعينان طريقة حياة ذاك المجتمع ويحددان تاريخه واهتماماته .. مما يجعل الحدود السياسية تبلور شخصية الفرد والمجتمع بداخلها .

وهذا ما حدث تماما على الصعيد العربي . فالنضال المشترك ضد المستعمر خلق تاريخا لكل قطر عربي ، يختلف عن تاريخ بقية الاقطار العربية ، في تفصيلاته . كما ان النضال المشترك في أي قطر ولد في نفوس ابنائه احساسا بالمصير المشترك بينهم ، عنيفا الى حد لا يمكن مقارنته بالاحساس بالمصير المشترك (النظري) بينهم وبين بقية العرب اجمعين . وصفة (النظري) هنا واردة على اساس انه ـ ما عدا مصر ـ لم يخف قطر عربي واحد لانقاذ قطر آخر من أي خطر يتهدده آنيا ـ هذا اذا استطاع ان يدفعه . ولم اورد طبعا ، هذه الصفة لنفي المصير المشترك العملي .

هذه ناحية ، والناحية الثانية هي ان الطريقة المشتركة ضمن حدود سياسية واحدة ، لتحصيل العيش ، تلعب دورا هاما في بلورة الشخصية الاقليمية وذلك في غياب الدولة القومية : فبلد كلبنان منفتح على العالم بحكم انه ممر بحري ـ جوي للتجارة العالمية ، يؤكد في ذهن ابنائه قيمة الانفتاح اكثر بمليون مرة مما يخطر مثلا على بال الصعيدي المصري الذي يرى خلاصه في السد العالي مثلا ، او البدوي في السعودية الذي يعلق آماله على حفر الآبار وليس على التجارة العالمية ـ اكرر ان هذا الاحساس يتضخم في حال غياب الدولة القومية التي تراعي هذه الاعتبارات وتؤلف بينها بما يخدم مصالح الجميع . ان وسائل الدفاع عن المجتمع ووسائل تحصيل الرزق تحددان شخصية المجتمع واهدافه .. وهذان هما العنصران الاساسيان للثقافة التي تنبثق عن هذا المجتمع . وهذه الثقافة تحدد ضمائر الافراد وتملي عليهم مواقفهم : قياديين ومنقادين سواء بسواء ، ما دام (التخلف القومي) يحد من آفاق الجميع . وبديهي ان ما أعنيه بعبارة « التخلف القومي » هو بروز الشخصية الاقليمية على حساب الشخصية القومية . ولا عبرة لان نقول ان هناك طبقة تستفيد من التجزئة لان هذه الطبقة هي التي تسيطر على مصير الكيان .

ب ـ القوة النوعية :

وهكذا نرى كيف ان انشاء الحدود ـ أي التجزئة ـ ادى الى نشوء الاقليمية ، غير ان الاقليمية بدورها عكفت على الحدود تسمكها وتطيلها لتجعل منها حواجز فعلية تمنع حتى ماء النهر من ان ينبع في قطر ويصب في آخر : والمثل على ذلك مياه شط العرب التي تصب في خليج البصرة : ثلاثون عاما من المفاوضات لم تكف لتجعل هذه المياه التي تضيع في البحر ، تذهب الى الكويت لتروي صحراءها . النتيجة : استفادت شركات الكهرباء والذرة الامريكية التي فبضت اموال الكويت لتحلي لها مياه البحر ، وبقيت الصحراء صحراء كما خلقها الله بدلا من ان تصبح جسرا اخضر يصل العراق العربي بامارات الخليج « العربي ؟ » .

غير ان اخطر نتائج التجزئة على الشخصية القومية ، هي ان الوطن العربي قسم الى دول تتماثل من حيث التطور الاقتصادي والعسكري والسياسي ، بحيث تستطيع هذه الدول ان تدافع عن نفسها ضد بعضها والبعض الآخر ، ولا تستطيع بوسائلها المتخلفة ان تدفع عن نفسها عدوانا خارجيا من دولة متقدمة .

لكن لهذا الامن « النوعي » بين كل دولة عربية واخرى ، جانبا آخر ايضا . فباعتبار ان كل دولة عربية تسعى الى « الوحدة » بما يتلاءم ومصالح حكامها وحكامهم (حكام الحكام) فان كل دولة كرست قوتها ضد جاراتها العربيات جميعها : لتحمي نفسها من هجومهم ، ولتستطيع فيما بعد ان تهاجمهم . ومن ينظر الى تاريخ العلاقات العربية الداخلية يجد ان :

العراق الهاشمي كرس موارده منذ تأسيس المملكة سنة ١٩٢٦ الى يوم سقوطها سنة ١٩٥٨ كي يستولي او يضم او يوحد سوريا والاردن .

الاردن كرس امكانياته لضم فلسطين وسوريا .

سوريا لضم لبنان والاردن .. الخ .

ولقد فشلت كل هذه الجهود « العربية » و « نجحت » كل دولة في المحافظة على « استقلالها » . وبالطبع فان كل صدام بارد او ساخن بين دولتين عربيتين قد يقوي الشخصية الاقليمية فيهما ويضعف الرابطة القومية ، ويؤدي الى مزيد من تدخل الغرب في المنطقة « لحماية » السلامة الاقليمية لدول المنطقة ...

الاستثناء الوحيد في المنطقة هو اسرائيل . فهي وحدها لها الحق عند الغرب في ممارسة البارد والساخن من الاصطدامات ، ولذلك زودها بقوة تختلف من حيث النوع عن قوة الدول العربية كلها ـ وهذا سر الاسلحة الالكترونية المتقدمة التي حصل عليها المصريون من الاسرائيليين وعرضوها على الروس فدهش هؤلاء من وجودها بين يدي الصهاينة .

فالتجزئة في هذا الوطن المتخلف أدت اولا الى خلق كيانات واهنة تسمح للمعتدي الاسرائيلي ان يحقق أطماعه بأقل الخسائر ، وكذلك شركات البترول والامبريالية .. الخ كما ادت ثانيا الى خلق كيانات متجانسة من حيث قوتها ، وبذلك لا يمكن لاحداها ان توحد البقية بالقوة بل بالرضى والاقناع والاستفتاء الحر : وهذا ما جرى لدولة الوحدة بين مصر وسوريا . فهي الدولة العربية الوحيدة التي قامت على اساس الاستفتاء الحر لجميع المواطنين ، اما بقية الدول والعهود فقد فرضت عسفا على ابناء البلاد العربية ، واستمرت كذلك الى اليوم ...

اما متى تتوصل « دولتان » عربيتان الى مثل هذا التوحيد بالتراضي فهذا يتوقف على نوعية القوى التي تسود الدولتين ...

ج ـ على الكيانات ان تختار بين مصر او اسرائيل :

بينا ان الحدود وجدت لتحد من سيادة الامة على نفسها واراضيها وقوتها واقتصادها ـ وبكلمة : على مصيرها . واذا كان العصر عصر قوميات وصناعات ثقيلة فلن تتمكن دول الخمسة ملايين مواطن

والخمسمائة مليون دولار من مسايرة الحياة في العصر الحديث . لذلك فان مصير هذه الكيانات يخبىء المزيد من الهزائم وخسائر الارض والارواح . والمزيد من اللاجئين والنازحين في النكبات والنكسات .. الى آخر ما في القاموس العربي من هذه الالفاظ .

بين هذا العماء الذي يسود الشرق العربي ، غرست اسرائيل بمهاجرين اوروبيين بكل ما تحمله صفة الاوروبي من معاني الحضارة الصناعية والتنظيم الاشتراكي الديمقراطي والارتباط المصيري بأوروبا ، مثلما انتصبت مصر بكتلتها المتجانسة وتقاليدها السلطوية وطليعتها المثقفة وعددها الذي يقرب من نصف عدد العرب ـ ان كان للعدد وزن في هذا السباق المهلك . وان كانت مصر هي المرشحة الوحيدة بين الكيانات العربية للدخول في حلبة الدول المتقدمة بسبب ضخامة كتلتها البشرية والاقتصادية .

وعلى حين ان التاريخ والجغرافيا يعطفان مصر نحو دول المشرق العربي كما يعطفان شعوب هذه الدول نحو مصر لاحياء الشخصية العربية الحضارية عبر الاتصال الشعبي والتعاون الاقتصادي المثمر ، لم تقف حائلا دون ذلك بريطانيا المحتلة ثم اسرائيل فقط ، بل تجندت قوى عربية متعددة الاشكال والاوصاف في مراحل متعددة لتعرقل او تمنع أي نوع من انواع الوجود المصري في منطقة الكيانات التعيسة هذه .

واذا بدأنا القصة من اولها وجب ان نعود الى عام ١٨٣٠ حين عبرت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا فلسطين وسورية لتصل الى قلب الاناضول وتقرع ابواب الرجل المريض في استانبول . منذ ذلك الحين ، لو كان لدى العرب وعي قومي لوجب ان يعتبروا هذه الجيوش جيوشا محررة ويتعاونوا معها ضد بريطانيا التي تدخلت على الفور لصالح السلطان العثماني ، وجندت مؤرخيها لتصوير هذه العملية بانها عملية « غزو » مصري ضد عرب الشرق . وقل ان تمتع أي مؤرخ عربي ـ خاصة في التاريخ الرسمي الذي يدرسه الطلاب ـ بوعي قومي يجعله يرفض التحليل الانكليزي .

منذ ذلك الحين جعلت بريطانيا من استراتيجيتها الدائمة اضعاف مصر وعزلها عن الشرق العربي : فشنت عليها حملتين ثم احتلتها سنة ١٨٨٢ . ومما يلفت النظر ان مفاوضات الشريف حسين مع انكلترا كانت على الدوام تغفل مصر . في حين ان مفكري الانتلجنس سرفيس جهدوا لينشروا بين العرب ثلاثة افكار عن مصر : الفرعونية والعزلة والتخاذل .

طرحت الفرعونية في نهاية القرن الماضي وطرح معها شعار الكتابة بالحروف اللاتينية ـ الاقتراحان من افكار اللورد كرومر حاكم مصر والسودان (انظر كتاب « اسرائيل الكبرى » للدكتور اسعد رزوق) .

وبين ١٨٨٣ عام الاحتلال و ١٩٥٢ نشبت في مصر ثلاث ثورات للتخلص من بريطانيا والحصول على الاستقلال : وقد صور « المفكرون » هذه الفترة على أنها « عزلة » مصرية طوعية ، متناسين ان الثورات الثلاث انما قامت لفك هذا الحصار الانكليزي ضد مصر .

هذا ويبدأ التشكيك في مصر بعروبة الشعب المصري ولا ينتهي الا بالطعن في انسانيته ، فاذا به شعب خامل هامل ، نسول كسول ، جائع خانع ضائع ... وبمثل هذه الصورة يكون مثل هذا الشعب عبئا على العرب ان كان عربيا ، وان لم يكن فمن الخير للعرب ان يبتعدوا عنه . ثم يأخذ المفرضون بتضخيم مشكلات مصر وتقليل مشكلات الكيانات ، فيقولون ان زيادة السكان تستهلك خطط التنمية وان وعي شعوب الكيانات ارفع درجة واوسع شمولا من وعي المصريين ، مما يجعل المصري يتطلع الى الوحدة وكأنها استعمار يحل له مشكلات تزايد السكان وفقر مصر بالموارد الخام وعائدات البترول .. الخ .

ان هذا التشكيك لا يقتصر طبعا على اذاعة اسرائيل ولندن ، بل يجد دوائر « عربية » ترددة وتنشره على مستوى القيادة والقواعد ... دون ان تتاح الفرصة للقول ان ثورة سنة ١٩٥٢ لم تات عربية صريحة الا لان سواد الشعب المصري يريدها كذلك ، أي يريدها ان تردد صدى عروبته وايمانه القوي . وما مواقف مصر ضد حلف بغداد ولمساندة ثورة الجزائر وثورة اليمن واليمن الجنوبية الا مواقف قومية ضحت فيها مصر بأموالها وابنائها في سبيل تحرير الاجزاء المستعمرة من الوطن العربي . ويمكن القول بكل انصاف ان مصر الثورة قد دفعت بالقضية العربية الى مشارف لم يبلغها النضال العربي في نصف قرن قبلها .

وما لنا وللمارين بعد ان تحملت مصر نتائج عدوان حزيران بأكمله كي لا تسمح لاسرائيل بأن تنفرد بدولة من دول الكيان وتهاجمها لتحتلها وتفرض عليها صلحا منفردا ؟

ولو لم يكن لمصر الا هذه التضحية الطوعية ـ التي لم يشكرها لها احد ـ لوجب ان تدحض هذه الافتراءات من اساسها ، وان يعاد النظر في موقف الكيانات من مصر ، بعد كل الذي حصل .

المهم ان الفكر الاستعماري المنكر للعروبة نشر ستارا من الاضاليل ليعزل مصر عن كيانات المشرق ، ثم اقام اسرائيل حاجزا ماديا . وعلى الرغم من ان مصر وحدها بين الكيانات العربية هي المرشحة لاحداث الانقلاب الصناعي في اقتصادها برغم كل العقبات الطبيعية والموروثة ، فقد اقام الغرب اسرائيل لتسابقها وتسبقها بحكم ان المجتمع الاسرائيلي المستورد كليا قد استورد معه نظامه الاقتصادي والاجتماعي دون حوائل الماضي التقليدي الذي تتعثر فيه مصر .

كيف يمكن لمصر ان تسبق اسرائيل ؟

الجواب الطبيعي والوحيد ، هو ان هذا ممكن بمعونة كيانات المشرق . فهذه الكيانات خفيفة الكثافة السكانية : (٥/ كم٢ في الجزيرة السورية التي تحوي اخصب مناطق سورية والتي يقام فيها سد الفرات) فلماذا لا تحل الكيانات العربية مشكلة قلة اليد العاملة لديها باستيراد فلاحين مصريين ؟

اقرأوا كتب بن غوريون تجدوه يردد في كل فصل ان لدى العرب فائضا من الاراضي التي لا يستعملونها ولا يحتاجون اليها . وها هي اسرائيل « تنظف » الارض من العرب وتفرس مكانهم مهاجرين صهاينة من انحاء العالم المختلفة . فلماذا نعطي قسرا اراضينا للصهاينة ، ولا نمنح بالرضى اراضينا لابناء عمنا المصريين ؟

يصدق هذا على الخليج العربي كله حيث يتدفق الايرانيون ليملأوا ذاك الفراغ السكاني ، مثلما يصدق على جنوبي السودان ...

ان تأخر المسؤولين العرب عن معالجة مشكلة اعادة توزيع السكان العرب في الاراضي العربية تدينهم جميعا اما بعدم الوعي واما بالاقليمية . لان هذه المشكلة غدت مرتبطة اشد الارتباط مع هوية المنطقة في استمرار تعريبها او عبرنتها او فرنستها .

ان زيادة السكان في مصر عامل قوة بالنسبة لهوية الارض العربية ، اذا اقر مبدأ تهجيرهم الى الاماكن العربية الفارغة او المتخلخلة . وبمقدار ما تكون هذه الزيادة عامل قوة على المستوى القومي تغدو عامل ضعف على المستوى الاقليمي . وكذلك الامر في المناطق ذات الكثافة القليلة .

الناحية الثانية التي تستطيع فيها كيانات المشرق معونة مصر في ثورتها الصناعية ، هي بالطبع ناحية التنسيق الاقتصادي . ومهما قلت في هذا المجال فسوف اكون عيالا على غيري من الاختصاصيين . غير انه لا بد من التأكيد بأن هذا التعاون العربي وحده هو الذي سيعجل بالتراكم المالي والعلمي اللازم للثورة الصناعية .

ان المنطق الاستعماري يصور للكيانات ان الصراع والسباق بين اسرائيل ومصر على ابتلاعها يتم على مستوى واحد . وقد خدع كثير من العرب بهذا المنطق ، قياديين واميين ، ثم ذوبت نار الحرب كل الضلالات وان منع دخانها تبلج الحقائق : يريد الاستعمار ان تتصارع مصر واسرائيل لتبقى الكيانات غنيمة الفائز . وقد كفل الاستعمار الى الآن فوز اسرائيل . فهل يرضى عربي في سوريا والعراق والاردن ولبنان والجزيرة العربية بمصير الرقيق ؟

الا ان التعاون الحقيقي ليس هو التعاون الذي يقوم في اوقات الحرب . بل ان التعاون المثمر هو تعاون السلم . لان الرأسمالية ترى

في كل سلام هدنة بين حربين : وقد فرضت علينا ثلاث حروب في تسعة عشر عاما .

فاذا كان السباق على تقرير مصير المنطقة بين مصر واسرائيل فلا يجوز لدول الكيانات ان تقف على الحياد . فاذا اختارت هذه الدول تلبية شعوبها في التزام جانب مصر فلا يجوز ان يقتصر ذلك على ايام الحرب . بل يجب ان يكون ذلك اولا في فترات السلام ، حيث يكون التعاون مثمرا . ان كل خذلان لمصر ايام السلم هو خذلان لها ايام الحرب . ولكي نوضح هذا المبدأ توضيحا كافيا ، ارجو من القاريء ان يتخيل الى ماذا كانت ستؤول حال مصر من المنعة والازدهار ، لو ان المائة مليون جنيه استرليني ـ المساعدة الحالية ـ كانت تدفع الى مصر قبل حرب حزيران بعشر سنوات مثلا !!

كيف نتوصل الى تحقيق الاختيار القومي :

ولكن اية وحدة هذه التي ستقوم بين الفرد الكويتي الذي يبلغ دخله السنوي الف جنيه استرليني والفرد المصري الذي لا يتجاوز دخله السنوي خمسة وعشرين جنيها وبين الفرد السوري الذي يقدر دخله السنوي بسبعين جنيها ؟

ان الوحدة العادلة ـ هكذا يقول اعداء الوحدة ـ هي وحدة بين انداد . وان اية وحدة تقوم بين اطراف غير متساوية هي وحدة لصالح الطرف الافقر . ولذلك لا يجوز ـ في رأيهم ـ ان تتوحد البلاد العربية، لان مثل هذه الوحدة تضحي برفاهية الاقطار الغنية لمصلحة الاقطار الفقيرة . لذلك فان مقاومة الوحدة دفاع من المترفين عن رفاهيتهم ، دون ان يمس موقفهم هذا قضيتهم القومية !!

آ ـ نظرية الملكية القومية :

ولكن ، هل بالامكان ان يتساوى الدخل ؟

واذا كان تساوي الدخل مستحيلا ، فهل نستنتج ان الوحدة مستحيلة ؟

واذا كان الامر كذلك ، فمن الذي فصل الوطن العربي تفصيلا تخرج منه دول بترولية فقط ، ودول زراعية فقط ، ودول مكتظة بالسودان كمصر ، ودول يتبعثر سكانها على مساحات خصبة غير مستغلة كسوريا والسودان ؟

اذا كان الاستعمار قد قسمها فان وجودها غير شرعي لانه لا يقوم على ارادة شعوبها . ان مثل هذا التقسيم التعسفي ليس تأسيسا لدول ذات سيادة بل تقسيم لمزارع خاضعة للاستغلال .

وحتى لو ضللت اكثرية ما في كيان ما واختارت العزلة ، لما كان لاختيارها أي معنى أو أي اساس مشروع ، وذلك لسببين :

الاول ـ ان مجموع الارض العربية ملك لمجموع ابناء الامة العربية. وهذه الملكية القومية لا تخضع لارادة اقليمية مهما بلغتفيها شدة الرفض والمقاومة لان الارادة الاقليمية تعني في النهاية سلخ ارض عربية وتسليمها لامة غير عربية .

الثاني ـ هو ان أي استفتاء لا يجوز ان يقتصر على اصوات سكان الاقليم بين مؤيد ومعارض ، بل يجب ان يستند الى مجموع اصوات الشعوب العربية المتوحدة .

اذ ما معنى المصلحة القومية دون اقرار مبدأ الملكية القومية ؟

وكيف نراعي المصلحة القومية اذا كنا نجعل الاولوية للمصالح الاقليمية ؟

ان نظرية الملكية القومية تسقط حجج الذين يجعلون من الاقتصاد دعامة للانفصال . لان من يؤمن بأمة عربية واحدة ووطن عربي واحد يؤمن بالملكية القومية لثروات الوطن الواحد . ومن ثم لا تعود الوحدة وحدة بين انداد ، لان الاستعمار حين قسم المزارع ووزع عليها الاعلام ، لم يراع ـ عن عمد ـ المساواة الاقتصادية، بل اراد المبالغة الكاريكاتورية في التفاوت وعدم التكافؤ في توزيع الثروات بين الدول العربية ، حتى تظهر الدعوة الوحدوية بمظهر الاستغلال تارة والحاجة تارة اخرى ...

ولعل الرئيس الثوري جمال عبد الناصر كان يراعي نظرية الملكية القومية بالذات حين أعلن في ٢٣ ـ ٢ ـ ١٩٥٩ تخصيص ثلث دخل قناة السويس لميزانية الاقليم السوري ، على اعتبار ان قناة السويس مرفق عربي ، ومن حق الاقطار المتوحدة ان تنتفع بارباحه ـ ولا ادري اذا كان الشعوبيون يعتبرون سلوك الرئيس من « اخطاء الوحدة » !!

ب ـ ضلالة المقياس الاقتصادي :

ولكن ، هل يعتبر غنى الشعوب غاية في ذاته وليس وسيلة الى هدف آخر غيره ؟

ان التاريخ لم يعرف شعبا جعل الرفاه غايته الا قضى عليه بالهلاك . فالثروة عند الامم الناهضة وسيلة للقوة اولا ، وللعلم والكشف العلمي ثانيا ، ولرفع مستوى الخدمات الاجتماعية ثالثا . بالاولى تدافع الامم عن حدودها ووجودها ، وبالثانية تساهم في تقدم المعرفة الانسانية ، وبالثالثة تزيد من تضامن المجتمع وكرامته . غير ان الامم صاحبات الرسالات ـ والعرب في طليعتها ـ تستخدم هذه الاقانيم الثلاثة معا لتنشر رسالتها وقيمها التي ترى فيها خلاص الانسانية ، ولا تضحي من اجلها بالمال فقط ، بل بالابناء ايضا . وبفضل الرسالات التي تحملها الامم تتقدم الانسانية وتعلو نحو تحقيق غد افضل . وليس ينسى التاريخ الوسيط فضل العرب وتضحياتهم ، أيام كانت دولتهم ـ باسم الاسلام ـ تنشر المساواة والتسامح في آسيا وافريقيا واسبانيا وتعلمهما للانسانية جمعاء .

ان من اكبر المآخذ على الدول القومية في اوروبا انها تنشد رفاهية شعوبها على حساب امم الارض جمعاء ، وتنكر على هذه الامم أي حق لها في التقدم والاستقلال . وعندما حاولت ان تبرر انانيتها هذه، قدمت لها اسوأ التبريرات المتعجرفة : رسالة الرجل الابيض . وما هي في جوهرها الا ادعاء العرقين السكسوني ـ الجرماني بالحق في ابادة الامم واحتلال مكانها في ارض نشأتها : طرد الافارقة من جنوبي افريقيا . طرد العرب من فلسطين . وقبل ذلك بقرنين : ابادة الهنود الحمر من الامريكتين .

واليوم ، نجد الروس وبقية شعوب الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ، تحمل شعلة الحرية والتقدم للشعوب ، فتقوم بدور الوارث للحضارة العربية ورسالتها الى الانسان . ومن ينظر الى التضحيات العظيمة التي تبذلها الشعوب الاشتراكية لشعوب شرقي آسيا وللامة العربية ـ خاصة وان هذه الشعوب الاشتراكية آمنة على حدودها ووجودها ـ يدرك حقا ان المال ليس للرفاهية بل لتحرير الانسان . اذ لو ان السوفيات احتفظوا لانفسهم بآلاف الملايين من الروبلات التي يبذلونها لتحرير الشعوب ، فالى أي مدى من الرفاه يمكن ان يصلوا ؟ :

١٤ مليار روبل .

٣٠ مليار دولار .

لا ابالغ اذا قلت ان هذين المبلغين يمثلان شرف الحرية وفطرسة الطغيان : الاول هو قيمة المساعدات التي يدفعها السوفيات للفيتكونغ والثاني هو كلفة الحرب التي تخوضها امريكا ضد الفيتكونغ ـ هذا لكي لا نتحدث عما يبذله لنا السوفيات ، نحن العرب .

فاذا كان ما يقوله هذا التحليل صحيحا في مجال العلاقات بين الامم ، فكم بالاحرى هو اكثر صدقا وصحة في موضوع العلاقات بين اجزاء امة واحدة يتحيف اعداؤها اطرافها ، ويأكل الصهاينة قلبها ، ويسهم رأس المال العالمي في ابادتها وافنائها ؟ انني أومن بأن حقيقة العالم في موسكو بمثل ما أومن بأن حقيقة العرب في القاهرة . ومهما تكن تحفظات المنطق الثوري الصوري صحيحة على سياستي الدولتين ،

فلا يجوز ان تجر هذه التحفظات النظم الاشتراكية الاخرى ، كالصينيين، الى معاداة السوفيات ـ وبشكل مضاعف عشرات المرات ـ لا يجوز ان تجر هذه التحفظات الدول العربية « الثورية » الى معاداة القاهرة . فمن شأن هذا العداء في النهاية ، لا ان يرسخ الشخصية الاقليمية فقط ، بل لا بد ان يلقي ظله على الصلات بين الشعبين . فالاشاعة التي اطلقتها اسرائيل والرجعية العربية من ان كل مصري رجل مخابرات ، جعلت الناس في سوريا ـ حسب ما شاهدت ـ يتوقون الصلات مع الزوار المصريين ، رسميين او غير رسميين ، تجنبا ـ لشكوك السلطة الانفصالية .

التقدميون بالفكر ـ الرجعيون في التنفيذ :

سألت احد الاشتراكيين المتحمسين : كيف ستصبح سوريا بعد تأسيس الصناعات الخفيفة فيها ؟ أجاب على الفور : مثل بلجيكا . فقلت ولكن بلجيكا لم تحظ بعدو يطالب بجلائها عن اراضيها ، وانت تعلم ان عدة الحرب لا تقوم الا بالصناعة الثقيلة . فأجاب : سيساعدنا السوفييت . فقلت : ولم لا نساعدهم بعد ان نتم تصنيع دولة عربية موحدة ؟

وهذه هي علة خطط التصنيع والتنمية في البلدان العربية التقدمية : انها خطط تنسجم مع المنطق الاقليمي وترسخه ، وهي بالتالي خيانة للمصلحة القومية التي تتطلب التنسيق بين خطط الكيانات ومصر لكيلا تحبط هذه الخطط بعضها بعضا في المزاحمة على الاسواق العربية الفقيرة . ان الماركسية لا تتبنى التخلف الاقتصادي ، لكن هؤلاء الماركسيين حين يبنون تخطيطهم على اساس التجزئة القائمة يخونون كل مبدأ للتقدم لان التصنيع الثقيل لن يتم مطلقا فيحدود التجزئة القائمة. فاذا علمنا ان الغرب باكمله يتعهد ببقاء اسرائيل ، ادركنا ان العرب لن يسترجعوا فلسطين الا اذا كانت لديهم القوة الذاتية لمجابهة الغرب ، ولن تبني هذه القوة الا دولة الوحدة .

ان صناعات العصر الحديث تضيق بالكيانات السياسية الضيقة، وترحب لدى المسافات الرحبة والكثافات المنظمة . وليس غريبا ان تكون اعظم الدول في عصرنا هي اوسعها مساحة واكثفها سكانا ، وليس ماركس على خطأ حين يعلل نشوء الحركة القومية بحاجة التوسع الصناعي الى المواد الخام واليد العاملة ، على اعتبار ان الفكرة القومية مقولة طرحتها البورجوازية الوطنية الاوروبية في العصر الصناعي . ان التقدم الحقيقي ، مقترنا بالتصنيع الثقيل ، ليرفض التجزئة ، مثلما ان منطلق التجزئة ليرفض كلا من الصناعة والتقدم . فالانتاج الكثيف والابحاث العلمية يحتاجان الى ميزانيات تفوق ميزانية اية حكومة عربية ـ فضلا عن طاقتها على الاستهلاك . لذلك فان مشاريع التنمية القطرية ليست في حقيقتها اكثر من مشاريع بلدية ينفذها « مخاتير » زيفوا صورتهم بصبغة حمراء .

ان مخاتير الماركسية في مصر والكيانات المشرقية يزعمون ان مجرد تطبيق المبادىء الماركسية في اية رقعة من الارض العربية ، مهما تكن صغيرة فقيرة ، سيجعل مجتمعها يزدهر . بل ان استمرار التجزئة التي فرضها الاستعمار ، يتم الآن بدعوى التفاوت في درجات الماركسية بين انظمة الحكم التقدمية . والذين يستخدمون هذه الحجة يغفلون انهم بذلك يجعلون من الماركسية لعنة على الامة العربية ، مثلما هي الامبريالية تماما ، ما دامت تتخذ حجة ضد الوحدة . ان لينين لم يطبق الاشتراكية في مجموعة قرى تضم بضعة مليونات بل استخدم الماركسية في تنظيم مجتمع يضم ما يقرب من مائتي مليون من البشر ينساحون على مساحة تمتد الى ثلاثين مليون كم٢ !! ان المباديء بلا موارد كالموارد بلا مباديء : كلاهما يعجز منفردا عن تغيير الواقع العربي تغييرا ثوريا . ان الثورة العربية ابتليت اشد البلاء بقيادات محدودة الافق . اذا آمنا بطيبة النوايا .

من هنا الى الطوفان :

وسط هذا العماء الذي يتخبط فيه العالم العربي ، وتحت وطأة السلاح الامريكي والاستراتيجية الصهيونية ومخططات شركات البترول ، تنفتح في ليل الجماهير العربية كوتان يتسلل منهما بعض النور : التوعية التي يمارسها الزعماء العرب في استنفار الجماهير ضد خصومهم ، وهي توعية القت الجماهير حينا في حالة من الشك ، ثم جاءت الحرب ففضحت الزائف من الصحيح ، وبدأ الناس يقارنون بين ما سمعوه وما شاهدوه ويبنون نتائجهم .

والامر الثاني : نشوء حركة الفداء وعدم اقتصارها على الطلائع الفلسطينية .

ومن المؤمل ان تجر هذه الحركات وراءها جماهير شتى تدربها وتعود شبانها على أخذ حقوقهم بأيديهم .

ان تنظيم المجتمع العربي المتخلف على اساس من الديمقراطية الشعبية لمهمة صعبة طويلة ، تستوجب وجود وحدويين مؤمنين بمجتمعهم وبالمباديء التقدمية ، لا ينصرفون عن تحقيق اهدافهم العامة الى تحقيق مكاسب خاصة تتيحها لهم طبيعة وجودهم في السلطة ، ومن جهة ثانية يجب تدعيم اجهزة الرقابة الشعبية وكفالة حق المواطن بالسؤال والكلام والتحقيق الفعلي فيما يريبه . فضلا عما يجب من ازالة الشك بين الفئات القومية بعضها مع البعض الآخر وبينها وبين الفئات الاشتراكية.

ومن المؤسف ان دور الشيوعيين في السنوات العشر الماضية قد اقتصر على دور المراقبين الاقتصاديين في رعاية التأميم والاشراف عليه. ولم يكن لهم دور واضح في تأجيج المد القومي ، ان لم نقل انهم ساهموا في تبريد المسألة ووضعها على الرف . وهذا يعكس ضعف كوادرهم والتحامهم مع أصولهم من البورجوازية الصغيرة . كما ان الاحزاب الاشتراكية الحاكمة غرقت في مشروعات التنمية القطرية التي افادت على المدى القريب ، فان تأثيرها على المدى البعيد مشكوك فيه ، بالنسبة للقضية العربية . فضلا عن ان عدم الاهتمام بنظام المزارع الجماعية في الريف العربي أدى الى تزايد هجرة الفلاحين الى المدينة ، وبقاء الريف على حالة من التخلف والفقر بالرغم من الاصلاح الزراعي وتحسيناته المتوالية . ان تنظيم الريف اكبر خطوة على طريق الوحدة ، لا بسبب ان تنظيمه يعني المزيد من تحقيق الاجراءات الاشتراكية ، وانما لانه يكشف فقر الارض بالايدي العاملة ، ويتيح المكان المنظم لاستيعاب الفلاحين المصريين الذين يؤكدون بمجيئهم عروبة الارض .

كما يجب ايجاد طريقة لتحقيق المزيد من المبادلات التجارية وتصريف المصنوعات القطرية وتوحيد السياسة الخارجية في الاستيراد والتصدير ، اذ ان مما يؤسف له ان تظل اتفاقيات المدفوعات بين الدول العربية تجري بالاسترليني والدولار ، في حين ان التسهيلات بين الدول العربية والدول غير العربية تفوق التسهيلات الجارية حتى بين دول السوق العربية المشتركة ، وهذا يتنافى مع مقتضيات بناء القوة العربية الذاتية وتنسيق التصنيع ، فضلا عن مجافاته للروح القومية . لقد تركت مصر حتى الآن لتحل مشكلاتها بنفسها ، ولولا شراهة اسرائيل وسعة عدوانها ، لتركت مصر تجابه اسرائيل منفردة وليس لها من العرب الا التمنيات بالنصر القريب ، غير ان (الآخرين) هم الذين يعاملون العرب على انهم امة واحدة وجبهة واحدة ، فاذا بالعرب يجدون انفسهم ـ على كره منهم ـ محزومين بسوط واحد . وتفدو الوحدة مطلبا اكثر الحاحا يوما بعد يوم .

وماذا اذا اخفقت الانظمة القائمة في كسر هذا التصلب الذي اصيبت به الحدود والعقول العربية ؟

للاجابة على ذلك ، يجب ان نرجع الى تاريخ ربع القرن الماضي :

فبعد الحرب العالمية الثانية كان توحد الشعوب العربية في دولة قومية هو اخطر ما يشغل بال الصهيونية وشركات البترول . وقد بلغت الحركة القومية في ظل البورجوازية العربية اوجها في مشروع الرئيس

ناظم القدسي الذي قدمه الى الجامعة العربية عام ١٩٥١ . لكن هذه البرجوازية المستغلة والتابعة للاستعمار عجزت عن ان تتوحد . وقد كانت التناقضات بينها تمثل تناقضات النفوذ الاجنبية ، مثلما تمثل روح « اللامساس » التي تشعر بها البورجوازية تجاه أي عمل قد يمس مصالحها ، فكان ان سقطت النظم التي رفضت الوحدة جميعها ، لان الكيانات التي تخضع لهذه النظم اكثر هشاشة من ان تصمد لرياح التغيير سواء أهبت من الداخل او من الخارج .

فهل تعلمت الطبقة الجديدة الدرس الذي لم تفهمه سابقتها ؟ ان الفرصة لم تفت لانشاء كومنولث عربي بأيدي البرجوازية الصغيرة . وباستطاعة هذه الطبقة ، عن طريق تنازلات متبادلة بين دول التجزئة الاقليمية ان تلين الحدود ولا تذيبها ، فتحمي مصالحها ومصالح الامة ـ مع شيء من التجاوز .

وأغلب الظن ان ذلك لن يحدث . فلم يبلغ الوعي القومي حد التضحية بالمؤسسات القائمة ، على تفاهتها . كما ان تكالب المصالح على خيرات المنطقة قد ازداد وصار اكثر تعقيدا بكثير عما كان عليه سنة ١٩٥١ . وفي هذه الحالة ليس هناك أمل الا بتحطيم الكيانات العربية القائمة عن طريق حركات فوضوية تخرب المؤسسات القائمة وتتحدى اجهزة الامن وتجعل الحياة في المدن مستحيلة ـ تماما كما يفعل ابطال غزة ضد اسرائيل .

وأقول « حركات فوضوية » وانا مصر على هذا الاصطلاح . لان أجهزة القمع التي يملكها حكام الكيانات تفوق طاقة التنظيم لدى الملايين القليلة الخاضعة لتسلطهم . ومن هذه الجهة ، تختلف مظاهر الثورة العربية « البروليتارية » عن مظاهر ثورات العالم الاخرى ، كالصين مثلا : فماوتسي تونغ كان يحارب نظاما واحدا وجيشا واحدا . أما الثائر العربي الاشتراكي الوحدوي فيجب ان يحارب عشرين نظاما وعشرين جيشا ستتآمر كلها ـ على اختلافها ـ للتخلص منه . وهناك أخيرا اسرائيل التي مارست دور حماية الكيانات منذ انشائها . ومما يجدر ذكره ان الصهيونية لاتحمي اتجاها معينا بل تحمي أي كيان من الذوبان في كيان آخر ـ الاها طبعا ـ بحجة اختلال النوازن في الشرق العربي .

وهكذا يتوجب على الثائر العربي ان يقاتل على جبهتين واضحتين: في الداخل ضد اجهزة القمع التي تحمي الكيان ، وفي الخارج ضد اسرائيل التي ستهدد بالاحتلال اذا اختل توازن المنطقة باختلال الكيانات التي تعتبرها اسرائيل « محمياتها » . ان قيمة الحركة الفوضوية في اسقاط هيبة الدولة لاتقدر بثمن : انها تحدث الفراغ الذي سيتحرك الشعب لملئه ، كما حدث لروسيا القياصرة . ففي تقديري ان ثورة ١٩١٧ كان يمكن ان تفشل كثورة ١٩٠٥ لولا ان الفوضويين خلال خمسين عاما سبقتها هشموا كيان الدولة ، فلم يجابه لينين من السلطة سوى أنقاضها .

وبما أننا قد لانعيش حتى نشاهد ذلك اليوم السعيد ، يوم اسقاط الكيانات بأيدي قوة اشتراكية وحدوية ، فلا بد ان نضيف ملاحظة أخيرة : لكي تكون هذه الثورة ثورة توحيد ، على الثوار ان يخصصوا خمس الارض في كل منطقة يحررونها ، لزرع كومونات يملؤها مصريون فلاحون ، وستكون هذه الخطوة نهائية وحاسمة ضد أي ارتداد أو انقضاض تقوم به القوى المعادية للوحدة من داخل الثورة او من خارجها . وهذا يقتضي ان يكون في مصر نفسها نظام يقر ذلك ، واذا لم يقره فان الدعوة التي يوجهها الثوار الى فلاحي مصر لابد ان تهزهم وتدفعهم الى الحركة .

***

ان البورجوازي العربي المترهل في أقياء الشرق الاوسط لن يفكر الا بتكبير كرشه ورصيده . وان المتطفل المغتصب للسلطة لن يفكر الا بتوسيع امتيازاته . وان القوة الصهيونية لن تزعج ـ اذا أمكنها ـ هذا ولا ذاك ، ان صيحة « اذهب انت وربك فقاتلا » لن تتكرر اليوم في الحوانيت والاسواق الكبرى اذا وجدت ان القنابل تلاحقها في بيوتها ، او ان السلطة القائمة جادة في :

أ ـ تشريك الزراعة وتصنيعها .

ب ـ تنسيق مشروعات التنمية القطرية مع الاقطار العربية المتقدمة .

ج ـ التعاون مع مصر لتنفيذ خطة للتصنيع الثقيل .

وهكذا فليست المشكلة العربية في ان تكون طليعتها ماركسية لينينية او ماوية او ماركوسية ، بل ان مشكلة الطليعة العربية في ان تكون مع التقدم او لاتكون . فاذا كانت مع التقدم كان عليها ان تؤمن بشعاري الوحدة والتصنيع ، وما يستتبعان من ضرورات ازالة الحدود وتنظيم المجتمع العربي تنظيما عقلانيا يعتمد على الاشتراكية والعلم . أما اذا كانت هذه الطليعة مع الماركسية الاقليمية او مع التنمية القطرية فانها لن تلبث ان تسقط في الفخاخ التي تنصبها التجزئة ويسقط في شراكها السياسيون ، أو يقعون في مهاوي الجمود العقائدي الذي يضيف الى قيود الدين والسياسة والجنس قيدا جديدا لخنق الفكر العربي الطفل .

وانه لمدهش ـ ان لم يكن مؤسفا الا يحظى الوضع العربي باهتمام المثقفين والادباء الذين يعيشون فيه ويزعمون انهم يستمدون مادة أدبهم وفكرهم منه . ان الاعمال الادبية التي تشتق موضوعها من الواقع الحضاري الذي تغرق فيه البيئة العربية تكاد لاتبلغ العشرات عدا ، على الرغم من أنني اعتقد ان هذا السبيل هو الوحيد الذي يمنح الادب هويته وصلابته . وعلى الرغم من ان هذا بدوره ناتج عن غموض الوضع العربي وتعقيده ، فان بالوعي يتجاوز الاديب شروطه . ان استيراد التكنيك ومناهج التحليل بل والمشكلات ، ليفضح حالة الغياب التي يعيش فيها العقل العربي ، على الرغم من ان قسوة الظروف العارضة تستدعي ان يكون هذا العقل في كل مكان حاضرا حاضرا حاضرا ..

دمشق — محيي الدين صبحي

في انتظار طائر الرعد

لشاعر المقاومة

سميح القاسم

٢٠٠ ق . ل — صدر حديثا